واقع الحركة الثقافية بالمجتمع الجزائري أواخر العهد العثماني من خلال كتابات الباحثين الجزائريين

✍أ/بلقاسم عياشي
مساعد بجامعة باجي مختار –عنابة-

نص

لا شك أن الحياة الثقافية ترتبط إلى حد بعيد بجميع أنشطة الحياة الأخرى، من سياسية واقتصادية واجتماعية...بل لا نكون مغالين في الرأي إذا قلنا أن الثقافة انعكاس حقيقي لتلك الأنشطة المختلفة، ولقد أصيبت الحياة الثقافية خلال الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر بما أصيبت به أوجه الحياة الأخرى (الخدمات العامة)

و حكمنا هذا مستند إلى التطور والاضطراد الذي عرفته المجتمعات الأوربية في بداية العصر الحديث،.لقد تميزت الحياة الثقافية بالطابع الإسلامي الذي كان أقوى رباط يجمع بين سكان الجزائر على اختلاف طبقاتهم، وكان الشعب الجزائري مدفوعا بطبعه إلى حب العلم على الرغم من حالة عدم الاستقرار النسبي، التي عرفها المجتمع الجزائري آنذاك، نتيجة للحروب العديدة طوال ثلاثة قرون مع الدول الأوروبية، والتي كانت متمثلة في الحملات الإسبانية.

فالحياة الثقافية التي كانت سائدة في الجزائر في بداية القرن السادس عشر الميلادي ظلت على ما هي عليه حتى بداية القرن التاسع عشر، وبمعنى آخر أن الحياة الثقافية لم تسجل أي تقدم وازدهار طوال الحكم العثماني في الجزائر أو بمعنى آخر أن الدولة العثمانية لم تبدل جهدا ملحوظا في النهوض بالحياة الثقافية بصفة عامة.

وحسبنا أن نشير إلى أننا سنقتصر في هذا الموضوع على تناول الأرضية التي قامت عليها الحياة الثقافية خلال العهد العثماني ومختلف وجهات النظر حول الحياة الثقافية والعلمية للمجتمع الجزائري خلال الفترة العثمانية.

ولنا أن نتساءل كيف كانت نظرة الباحثين الجزائريين للحركة الثقافية في الجزائر أواخرالعهد العثماني؟ وهل يصح أن نطلق على هذا العهد بعهد الانحطاط الثقافي، أم أن عهود الانحطاط الثقافي والسياسي قد بدأت قبل هذه الفترة؟.

إن المتفهم لطبيعة الحكم العثماني في جميع الولايات التي كانت خاضعة للدولة العثمانية يجد أن إيديولوجية(طبيعة) الحكم العثماني كانت على هذا الأساس- إذ أن هذه الدولة ينقسم عهدها إلى عهدين متمايزين :

العهد الأول الذي بدأ منذ القرن السادس عشر حتى بداية القرن الثامن عشر،هذه الفترة اتسمت بالتوسع العثماني، أو بعصر الهجوم، ومن بداية القرن الثامن عشر حتى انهيار الإمبراطورية اتسم هذا العصر بالدفاع وهذا ما أنعكس على واقع الثقافة بالجزائر مقارنة بالفترات السابقة من تاريخ الجزائر،حيث كانت حركة الثقافة في الجزائر قبل دخول العثمانيين تتركز في ثلاث حواضر أساسية، هي مدينة تلمسان في الغرب الجزائري، مدينة بجاية ومدينة قسنطينة في الشرق الجزائري، وكانت هذه الحواضر تعد بحق مراكز للتعليم والثقافة والإشعاع الفكري، فقد ازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون لعدة قرون، كما اشتهرت بها أسر علمية، توارثت العلم والمعرفة نذكر منها أسرة ابن مرزوق والمقري والعقباني في تلمسان، وأسرة ابن باديس ابن قنفد والفكون في قسنطينة، وأسرة المشدالي والغبريني في بجاية [1].

يرى البعض أن الحركة الثقافية كانت أقرب إلى الثقافة التقليدية، لا تساير العصر الحديث، وهذا لقلة إنجاب الجزائر لعلماء بارزين سواء في الميدان الفقهي أو الأدبي أو العلمي، وذلك لأن جهد الأتراك كان منصبا على الميدان العسكري، وخلق هذا هوة عميقة واسعة بين المسلمين والأوروبيين

(1)- العيد مسعود، حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا، العدد 3، الجزائر، 1980، ص،58.

حال دون إطلاع الجزائريين على ما كان يجري في أوروبا من اختراعات وتطورات تقنية[1].

وفي هذا السياق ذهب أبو القاسم سعد الله إلى أن الحكام العثمانيين في الجزائر كانوا غرباء عن الثقافة العربية، وعن تاريخ الحضارة الإسلامية، وهو الذي جعلهم كولاة وسلاطين، يستأثرون بشؤون الحكم من سياسة واقتصاد وإدارة، تاركين القضايا الأخرى لفئة أخرى[2].

ويضيف الباحث عميراوي أنه في العهد العثماني لم تحظ الثقافة في الجزائر بالأهمية الكبيرة من طرف العثمانيين بمثل ما حظيت به بقية القطاعات الأخرى، وفي مقدمتها القطاع العسكري ويرجع هذا الأمر إلى عاملين هما:

* الظروف الخاصة بنشأة الدولة العثمانية التي كانت في عصر يتطلب الاعتماد على القوة الحربية.

* انتشار الطرقية المتصوفة في البلاد العربية الإسلامية التي تولت بنفسها نشر الثقافة، وقد يكون عامل ثالث يتمثل في شعور العثمانيين بأنهم غرباء عن هذه البلاد[3].

ويضيف صاحب كتاب التحفة المرضية في الدولة البكداشية أن الثقافة في القطر الجزائري، كانت جهوية إقليمية أكثر منها قطرية عمومية، وإنها محصورة في أشخاص معينين، وأماكن محدودة وإذا كانت كذلك فهي عاجزة عن التأثير الذي هو شرط أساسي لثقافة الشعوب أينما كانوا وحيثما بانوا، وكانت الحركة الأدبية أقل انتشارا من الحركة الدينية، ولعل ذلك راجع إلى سببين اثنين :

([1])- عمورة عمار : موجز في تاريخ الجزائر، ط1، دار ريحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص 109-110.

([2])- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1 الغرب الإسلامي، 1988، ص 388.

([3])- عميراوي، من الملتقيات التاريخية الجزائرية، دار البعث، قسنطينة، 2000، ص 30.

أولا: أن الدولة التركية الجزائرية قد كانت أعجمية اللسان...، فهي لا تهتم إلا برجال الحرب ولأن العصر عصر اضطراب وانتقام.

ثانيا:أن التوجيه التعليمي كان دينيا أكثر منه أدبيا لاسيما الزوايا التي لم تؤسس إلا لتكون مرتعا للعلوم الدينية والفنون الإسلامية[1].

إلى جانب هذا نجد أبو القاسم سعد الله قد تحفظ في القول بوجود سياسة تعليمية عثمانية رسمية، بل نفى ذلك تماما مستثنيا محاولة بعض البايات بشكل فردي[2].

ويرجع أبو القاسم سعد الله هذا الوضع الذي آلت إليه الجزائر خلال هذه الفترة إلى توجه أوروبا نحو العالم الإسلامي وخوضها لحروب مع الدولة العثمانية، لذلك فهو يرى بأن فرنسا لم يكن في مقدورها أن تحتل الجزائر لو لم يكن المجتمع الجزائري على النحو الذي وصفه به ابن العنابي وشو وبانانتي[3]

لذلك لا نستغرب أن يكتب بعض الأوروبيين في القرن الثاني عشر (18م) نقدا لاذعا للحالة العقلية التي كان عليها المجتمع الجزائري، كما كتب آخر في أوائل القرن الثالث عشر (19م) نقدا ألذع من نقد صاحبه بعد أن لم يجد في المجتمع الجزائري، ما كان يطمح إليه من أفكار وتجديد ونشاط عقلي قائلا : " أن الأفكار تموت إذا لم تجد مجالا للتجديد المستمر"[4]، وقد قال أيضا بأنه كثيرا ما كان يخرج إلى شوارع العاصمة (مدينة الجزائر)، فلا يجد " شيئا يستدعي انتباهه فلا مكتبة ولا مقهى فيه جريدة..."

لقد قيل الكثير عن موقف الترك من الثقافة، سواء في بلادهم أناضوليا، أو في البلاد التي دخلت تحت دولتهم كالجزائر، وأقصى ما أتهم به الترك حب المال والبربرية والجهل والاهتمام بالأمور العسكرية دون المدنية، ونحو ذلك من الاتهامات التي تجردهم جملة وتفصيلا من الحضارة والثقافة،

([1])- محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، ش، و،ذ،ت، الجزائر،ص ص55-57 .

([2])- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ج1، المرجع السابق ص ص313-315 .

([3])- سعد الله، المرجع نفسه، ص 388.

([4])- نفسه، ص، 161.

فشارل فيرو CHARLES Feraud يرى بأن العهد التركي في الجزائر كان عبارة عن **"بربرية ثقافية"**، أو أن الشعب قد قلد حكامه الأتراك في جهلهم وبعدهم عن العلم والعلماء[1] .

و يرى أبو القاسم سعد الله أن ما ذهب إليه السيد شو SHAW *هو الأقرب إلى الصواب، عندما لاحظ قبل فيرو بفترة طويلة وهو يتحدث عن حالة العلوم* والفنون في الجزائر وقته، بأنها مازالت عند المسلمين " كما كانت منذ مدة في حالة الدنيا.فالفلسفة والحساب والطبيعيات والطب التي كانت ملكا لهم عدة قرون قد أصبحت الآن لا تكاد تعرف أو تدرس"، وقد أرجع شو ذلك إلى عدم الاستقرار لدى العرب، والمظالم التي كان يعانيها الحضر على يد الأتراك[2] .

ولكن حسب سعد الله أن شو كان يصف وضعا خاصا شاهده بل عاشه أثناء وجوده في الجزائر، ولم يكن يدرس العصر عن بعد، كما نفعل نحن الآن، فرؤيته شخصية رغم أن نتائجها صحيحة إلى حد بعيد .

و لعل هذا الحكم كان يستند إلى أن العثمانيين كانوا يفتقرون إلى أشياء أساسية كي يهتموا بالأدب والعلم والفن في الجزائر.[3]

حيث يضيف أن لغة الأوجاق العامة هي التركية، وهي لغة للحديث أكثر منها للكتابة، وقد جعلوها لغة رسمية في الدواوين وفي المعاهدات وبعض السجلات، بالإضافة إلى ذلك أن العثمانيين كانوا يشعرون بالغربة في الجزائر، رغم كونهم مسلمين ومدافعين عن الإسلام، وهذا الشعور قد جعلهم مبتعدين عن الأهالي غير منتمين إليهم، ولا مندمجين فيهم، وهذا

([1])- شارل فيرو مقدمة (كتاب العدواني) في مجلة (روكاي)1868، نقلا عن سعد الله، المرجع نفسه،، ص 189 .

*للمزيد من المعلومات حول حالة العلوم بالجزائر خلال الفترة العثمانية راجع كتاب نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والأخبار للورتلاني محمد السعيد ص 261 وكذلك كتاب Shaw voyage dans la régence d'Alger p364 :

([2]) سعد الله، المرجع نفسه، ص، 190

([3]) نفسه،ص 190.

العامل هو الذي لم يشجع على إيجاد إحساس أدبي وفني مشترك، رغم وجود إحساس روحي ومصيري مشترك[1].

ومع ذلك فقد عرفت الجزائر خلال العهد العثماني تراثا أدبيا وفنيا وعلميا يستحق الذكر، وأن هذا المخزون الثقافي هو من إنتاج علماء وأدباء ومثقفين جزائريين، وبالتالي فهو خارج نطاق الحكم، فأصحابه لم يجدوا التبني ولا تشجيع من الحكام العثمانيين.

وقد عرف هذا العصر بعض الرواد الأوائل في الحياة الثقافية، ولمع منهم علماء أجلاء في شتى فروع الثقافة من أبرزهم :

* أبو العباس أحمد المقري[2].

* ابن عمار[3] وكتابه الرحلات – سجل ملاحظة أثناء رحلة إلى مكة وذلك في غضون القرن الثامن عشر.

* الورتلاني- كتب أيضا رحلة إلى الشرق.

* عبد القادر المشرفي- ورسالته" بهجة الناظر في أخبار الداخلين ولاية الإسبانيين بوهران كبني عامر".

* حمدان خوجة – وكتابه" المرآة"- ويعتبر هذا الكتاب من أهم الوثائق المعاصرة للغزو الفرنسي على الجزائر.

* الحاج أحمد بن المبارك وكتابه(تاريخ قسنطينة).

* صالح العنتري وكتابه (تاريخ بايات قسنطينة) ويعرف أيضا بفريدة منسية في تاريخ الجزائر.

([1])- نفسه، ص، 191.

([2])- هو أبو العباس أحمد بن أحمد بن يحي بن عبد الرحمان بن أبي العيش بن محمد المقري القرعيشي، ولد بتلمسان سنة 986 هـ- 1578 م وتوفي سنة 1041 هـ 1632م ودفن بمقبرة المجاورين رحمه الله، وترك للثقافة العربية ثروة كبيرة في شتى الفنون.

([3])- هو الحاج أحمد بن عمار الجزائري مفتي المالكية بمدينة الجزائر، كان نابغة زمانه في العلوم النقلية والعقلية، كان مفتيا سنة 1771 ولم يعرف بالضبط زمان وفاته .

وغير ذلك من العلماء العظماء في شتى فروع العلوم النظرية، أما العلوم البحتة أو الفنية مثل الفلك والطب وغير ذلك، فلم تكن معروفة على مستوى علماء الجزائر، إنما كانت معروفة فقط لدى الدايات أنفسهم أو جنود الإنكشارية، إذ كان بينهم الأطباء الذين يقومون بعلاج هذه القوات، وقد أسدى العلماء خدمات جليلة عبر مراحل تاريخية لصالح الجزائر، إذ كانوا أداة رشد خاصة في المناطق التي لم يكن للنظام السياسي العثماني نفوذ فيها وكان دورهم خارج الجزائر كبيرا، ونذكر من مواقفهم أنهم حلوا مشاكل سياسية بين الحكام والرعية، مثلما توسطوا في حل مشاكل بين نظام الحكم في الجزائر وجيرانها، حيث مثلوا الوفد الجزائري إلى تونس عام 1037 هـ، وكذلك إلى المغرب عام 1064 هـ.

والشيء الملاحظ أن المراكز الثقافية عرفت انتشارا كبيرا في الريف الجزائري، وقد عبّر عن هذا الشيخ البوعبدلي في محاضرة ألقاها في المؤتمر الإسلامي بالجزائر العاصمة قائلا: " إن العصر العثماني امتاز في الجزائر بانتقال المراكز الثقافية من المدن إلى الجبال والقرى، واشتهرت عدة معاهد إذ ذاك في كامل القطر كمعاهد بني يعلى العجيسي وعبد الرحمان اليلولي وأحمد بن باديس وقرومة وبني خليل وسماته ولمدية، ثم معاهد الراشدية ومازونة والوانشريس واليعقوبي وندرومة ونواحي تلمسان كعين الحوت والشيخ بن أحمد البيدري..."[1]، فمن بين الخدمات التي تقدمها الأوقاف ومختلف البوادي والحواضر الجزائرية التي تزخر بالمساجد والمدارس، أن مدينة الجزائر مثلا كانت تتوفر على 106 مساجد أهمها:الجامع الأعظم الذي يقوم بخدمة 19 مدرسا و18 مؤذنا و8 حزابين و13 قيماً، بالإضافة إلى ثلاثة وكلاء يسهرون على تنظيم الأعمال به[2].

---

(1)- العيد مسعود، حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، المرجع السابق، ص :60 .

(2)- سعيدوني،دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر(العهد العثماني) المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر1984،ص :162

أما مدينة قسنطينة فكان عدد أماكن العبادة والتعليم فيها يزيد عن 100، منها 35 مسجدا و169 زاوية و7 مدارس رئيسية و600 تلميذ منهم 150 تلميذ من الأرياف، كلهم يتقاضون منحة سنوية من وكيل الأوقاف تقدر بـ 36 فرنك للطالب، مع إعانة نصف سنوية تتألف من كمية من الزيت والشموع والبخور والسجاجيد.

و الجدير بالذكر أن فائض مردود الأوقاف كثيرا ما يستغل في إنشاء أماكن جديدة للعبادة والتعليم، مثل زاوية الجامع الأعظم بالجزائر التي بنيت بفضل مردود الأوقاف عام 1039 هـ/ 1630م، تتألف من طابقين من الغرف لإيواء المدرسين والطلبة والفقهاء[1] .

و بالتالي بفعل عوائد الأوقاف تمكن حكام الجزائر من الأتراك أن يجدوا حلولا ملائمة لتسيير بعض المصالح التي لم يكن لها دخل محدد ينفق عليها، مثل الشؤون الثقافية التي ما كان لها أن تستمر لولا مداخيل الأحباس، التي كانت تساهم بنفقات الدراسة وسد حاجة طلاب العلم، وتتكفل بأجور المدارس والقائمين على شؤون العبادة بالزوايا والمساجد والمدارس[2].

و منه نخلص إلى أن الأحباس ساهمت إلى حد كبير في تحمل ودفع نفقات المدارس، وكما أن التعليم مرتبط بالحركة الدينية فإن مردود المؤسسات الدينية والأحباس كان يساعد على توظيف الأساتذة، والعناية بالمؤسسات الخاصة بالتعليم، وفي هذا المجال يمكن أن نضرب مثالا على ذلك الباي محمد الكبير الذي استفاد التعليم في عهده من مردود الأحباس في كل من مازونة، معسكر، تلمسان ومستغانم[3].

لاشك أن الحياة العلمية والثقافية للمجتمع الجزائري كانت انعكاس حقيقي لما تعيشه المجتمعات الإسلامية الأخرى خلال تلك الفترة، ولهذا برزت

---

(1)- سعيدوني، المرجع نفسه، ص :162 .

(2)- نفسه،ص:193.

(3)- الواليش فتيحة، الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، رسالة ماجيستيرجامعة الجزائر1994،ص 163 .

عدة حواضر جزائرية كبيرة عرفت نشاطا فكريا وحركة ثقافية تعليمية، وصل تأثيرها إلى الريف الجزائري، وقد كانت كل من تلمسان وقسنطينة ثاني المدن الجزائرية بعد الجزائر العاصمة تحظى بمكانة ثقافية وبنشاط العلماء، فاشتهرت قسنطينة بمساجدها وزواياها وبيوتها الكبيرة التي تعج بالمكتبات التي تحتوي على كتب المشارقة والأندلسيين، بالإضافة إلى التآليف المحلية[1]..

إن الخط البياني للثقافة في الجزائر كان يسير في حالة إطراد وصعود، فبعد النزاع السياسي الكبير الذي عانت منه هذه الثقافة في القرن العاشر(16م) الذي شهد هجرة العلماء الواسعة وكثرة الحروب، أخذت الحياة تدب فيها في القرن الحادي عشر باستقرار الأوضاع وازدهار الحياة الاقتصادية وتوارد العلماء المسلمين على الجزائر، ثم شهد القرن الثاني عشر(18م) وأوائل القرن الثالث عشر حركة قوية في صفوف العلماء والعناية بالتعليم وكثرة التآليف.

ففي أواخر القرن المذكور (الثاني عشر) بدأت حركة نشيطة بتشجيع التعليم والعناية بالأوقاف والاهتمام بالعلماء والكتب، وقد ساهم في هذه الحركة بعض البايات أمثال صالح باي والحاج محمد الكبير[2].

و لهذا كان لهؤلاء الحكام الأتراك أياد بيضاء في تشجيع بناء المساجد والمدارس في العديد من الحواضر الجزائرية، وقد كانت قسنطينة وتلمسان والعاصمة أهم المراكز الثقافية في البلاد[3] .

لقد ساهمت عوامل مختلفة في إثراء الحياة الثقافية في المدن الجزائرية الكبرى خلال العهد العثماني، كقسنطينة وتلمسان بالإضافة إلى مدينة الجزائر، حيث قامت بها العديد من المؤسسات والمراكز يلتقي ويتبادل من

([1])- يذكر أبو القاسم سعد الله أن عدد التلاميذ في تلمسان بلغ 2000 تلميذ وفي قسنطينة ما يزيد على 1300 تلميذ، أنظر كتابه تاريخ الجزائر التقافي، مرجع سابق، ص 333.

([2])- سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي،ج1 دار الغرب الإسلامي 1998، ص 19 ..

([3])- أبو راس الناصري: عجائب الإسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1632، ورقة رقم 2 نقلا عن صالح فركوس: المختصر في تاريخ الجزائر، ص 127.

خلالها الأفراد والجماعات مختلف الأفكار، فالماضي الثقافي لمدينة تلمسان، وتراث مدينة ندرومة، وفيما بعد مازونة، ومستغانم ومعسكر باعتبارها تمثل مدن بايلك الغرب، يشرح لنا الأدوار التي قامت بها هذه المراكز في التأثير والتأثر[1].

لقد استفادت هذه المدن من تراث الأندلس وذلك عن طريق الهجرات البشرية التي عرفتها المنطقة، حيث تلقت المنطقة أكثر من غيرها على مستوى الإيالة نتيجة القرب الجغرافي، ثانيا تأثرت المنطقة بالحياة الثقافية التي كانت سائدة بالمغرب الأقصى، وأخيرا المشاركة والمساهمة بصفة فعالة في الرحلات جنوب – شمال- شرق- غرب، حيث المبادلات المختلفة التي عبرت المنطقة وما لها تأثير على المجال الحضاري[2].

كما أن وجود مراكز ثقافية وعلمية على مستوى الوطن العربي، الأزهر والزيتونة والقرويين قد أثر في مدارس حواضرنا ونخبتها المثقفة، سواء عن طريق الاحتكاك بخريجي هذه المعاهد عبر رحلات الحج، أو عن طريق تشجيع منها للحركة العلمية[3].

فقد اهتم الباي محمد بن عثمان بتشييد دور العلم من مساجد ومدارس، فقد بنى مدرسة في مدينة معسكر، ومدرسة في وهران، وثالثة بمدينة مازونة، ومن أشهرها المدرسة المحمدية بمدينة معسكر، التي أشار إليها المؤرخ أبو راس الناصري في حديثه عن المدارس[4]، وقد اشتهرت بعدد من العلماء أمثال : الرماصي القلعي، عبد القادر المشرفي وأبي راس الناصري[5].

أما في مدينة قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري، فقد أسس صالح باي 1193 هـ (1779م) مدرسة سيدي الأخضر التابعة للمسجد المسمى بهذا الاسم، كما شيد مدرسة سيدي الكتاني سنة 1190 هـ (1776 هـ) لتعليم

([1])- الوليش فتيحة، الحياة الحضرية المرجع السابق، ص 156..

([2])- الوليش فتيحة، المرجع نفسه، ص 157.

([3])- نفسه، ص، 157.

([4])- العيد مسعود، حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، المرجع السابق، ص 65 .

([5])- سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الجزائر، 1981، ص ص 178-179. راجع كذلك كتاب مريوش أحمد وأخرون الحياة الثقافيةفي الجزائر خلال العهد العثماني، الجزائر 2007ص ص16-17

مختلف الفنون وجعل لمدرسة سيدي الكتاني نظاما خاصا محكما، وما تزال هذه المدرسة قائمة إلى وقتنا الحاضر[1]، نفس الشيء بالنسبة لمدينة الجزائر التي كانت توجد بها عدة مدارس منها المدرسة العثمانية التي أشار إليها أبوراس الناصري لهذا نجد بول قافاريل Paul Gaffarel[(2)] وهو أحد المؤرخين الغربيين يقول :" كانت قسنطينة على عهد الأتراك ...عاصمة دينية، وكان العلماء يتمتعون فيها بالسيادة المطلقة والنفوذ التام، كما أنها كانت غاصة بعدد كبير من الطلبة يغترفون من خمس وعشرين مدرسة للعلوم الدنيوية والأخروية، ثم يتفرقون في أنحاء القطر لينشروا ما اغترفوه من العلوم، إن قسنطينة كانت حقا مبعث نور الجزائر، كما كانت تشرف العلماء وتقدرهم حق قدرهم".

والفضل في تبوأ قسنطينة هذه المكانة يعود إلى حركة التعليم الشعبية التي قامت على أكتاف الأسر المحلية الكثيرة التي تولت مهمة بناء المؤسسات والتدريس بها العلوم التقليدية..... إذ تبين لنا أن عدد المؤسسات الثقافية بمدينة قسنطينة قبيل الاحتلال الفرنسي بلغ 93 مؤسسة.

وبالتالي أن مدينة قسنطينة كانت، خلال هذا العهد العثماني ثاني مدينة في القطر الجزائري أهمية، إذ تأتي بعد العاصمة في الأهمية، وتظهر هذه الأهمية في كون وهران ظلت تحت الحكم الإسباني إلى سنة 1205 هـ / 1792 باستثناء (فترة 1119هـ -1145هـ)، وكون مدينة تلمسان قد تراجعت مكانتها خلال هذا العهد، وتعود هذه المكانة إلى عدة عوامل، كونها مدينة داخلية ومحصنة طبيعيا وبعيدة عن غارات العدو البحرية التي طبعت ذلك العهد،

([1])- العيد مسعود، المرجع السابق، ص : 65.

([2]) -PAUL CAFFAREL : L'Algerie Paris Imprimerie de l'institut ,1883, p123

نقلا عن محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية تحقيق محمد بن عبد الكريم، المصدر السابق، ص 52.

-راجع كذلك كتاب محمد الهادي العروق،مدينة قسنطينة،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر،1984ص81

وكونها قريبة من تونس، ومن جهة أخرى فإن بعد قسنطينة عن العاصمة جعل حكامها شبه مستقلين عن السلطة المركزية[1].

وفي المقابل عرفت بعض المدن الجزائرية إلى جانب الحواضر الكبرى كقسنطينة والجزائر العاصمة وتلمسان حركة تعليمية وثقافية ساهمت في تنمية الحركة الثقافية بالجزائر خلال الفترة العثمانية، ويمكن أن نعدد مظاهر هذه الحركة باعتماد لغة الأرقام والإحصاءات والتي تعتبر وحدها الكفيلة في إعطاء صورة واضحة عن حالة التعليم في هذه المدن.

فمدينة عنابة كانت توجد بها قبل الاحتلال الفرنسي 39 مؤسسة للتعليم العام وزاويتان و37 مسجدا علميا هذا فضلا عن ثلاث زوايا في الريف القريب من المدينة، وفي سطيف زاويتان بقيتا مزدهرتين هما : زاوية أولاد مصباح وزاوية ابن علي الشريف، أما دائرة بسكرة وسيدي عقبة وطولقة كانت على جانب كبير من الازدهار[2].

أما بالنسبة للقبائل في شمال قسنطينة، فلا توجد أرقام إحصائية بخصوص حالة التعليم قبل عام 1830، وإن كان يذكر وجود حوالي 16 زاوية أساسية مبعثرة في المنطقة يديرها مرابطون ذوو نفوذ أشهرها :زاوية " مولاي طرفة" بين القل وجيجل وزاوية ابن علي الشريف في وادي آقبو.

ولكن بالرغم من انتشار التعليم وكثرة معاهده، فإن الجزائر كانت تفتقر سواء العهد العثماني أو قبله إلى معهد رئيسي كبير يلم شتات المثقفين، ويجمع وجوه نشاطهم العلمي والثقافي كجامع الزيتونة في تونس وجامع القرويين في المغرب الأقصى، وعدم وجود مثل هذين المعهدين في الجزائر يرجع إلى وجود معاهد إقليمية ومراكز ثقافية في حواضر البلاد الكبرى كمدينة الجزائر العاصمة، ومدينة تلمسان، ومدينة بجاية ومدينة قسنطينة،

([1])- سعد الله، المرجع السابق، ص، 169 .

([2])- العيد مسعود، حركة التعليم، المرجع السابق، ص 71.

وبقدر من التوازن بينها في المنزلة العلمية، ولذلك لم يكتب لواحد منها من أن ترتقي إلى مستوى المعاهد الموجودة في المشرق أو المغرب[1].

وحتى نكون منصفين إزاء الحكم العثماني بالجزائر حول مسألة حركة الثقافة بين الانحطاط والازدهار، نستطيع القول أنه قبل دخول العثمانيين واستقرارهم في البلاد لم يكن هناك توزان أو شبه توازن في هذه الحركة على مستوى المدينة والريف، فيما كانت الحواضر الجزائرية الكبرى تشهد حركة تعليمية ثقافية جد مزدهرة، كان الريف يعاني من وطأة الجهل والأمية، وفي الوقت الذي كان فيه العلماء يتركون حواضر العلم المشهورة في الجزائر وينزحون خارج البلاد، كان سكان الريف في بعض الجهات يبحثون عن قاض أو إمام، أو من يملك قدرا من المعرفة.

وبالتالي فكرة التوازن بين الريف والمدينة لم تظهر إلا في العهد العثماني، كما أن حالة الركود الثقافي الذي تميزت به الجزائر في العهد العثماني لم يشكل حالة استثنائية،وإنما هي حالة مشابهة لما كان سائدا بمعظم البلاد العربية التي لم تشهد أي حركة تجديد سواء فكرية أو علمية أو ثقافية .

ومن هنا يمكن القول أن المجتمع لا يتطور ولا يستمر في تقدمه إلا باستمرار ثقافته.

([1])- العيد مسعود، المرجع نفسه، ص 71.

قائمة المصادر والمراجع:

-العيد مسعود، حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة سيرتا، العدد 3، الجزائر، 1980.

-العروق محمد الهادي،مدينة قسنطينة،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر،1984

- الواليش فتيحة، الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، رسالة ماجيستيرجامعة الجزائر1994 .

-الورتلاني محمد السعيد،نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ اللأخبار،تحقيق محمد شنب، الجزائر،1908

-سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1 الغرب الإسلامي، 1988، .

-سعيدوني،دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر(العهد العثماني)المؤسسة الوطنية للكتاب نالجزائر 1984

-عمورة عمار، *موجز في تاريخ الجزائر، ط1، دار ريحانة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002*

- عميراوي، من الملتقيات التاريخية الجزائرية، دار البعث، قسنطينة، 2000

-صالح فركوس: المختصر في تاريخ الجزائردار العلوم،عنابة(الجزائر)2002

- محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، ش، و،ذ،ت، الجزائر،1972

-مريوش أحمد وأخرون الحياة الثقافيةفي الجزائر خلال العهد العثماني، الجزائر، 2007

- PAUL CAFFAREL : L'Algerie Paris Imprimerie de l'institut ,1883

- Shaw thomas(dc) voyage dans la régence d'Alger èdition tunis bouslama 1980